فلسفة الدين في الفكر المعاصر

الفصل السادس 6

obeikandl.com

obeikandl.com

تمهيد

هناك حقيقة سيكولوجية لا يمكن إنكارها إلا عن جهل ـ كما يقول "ولترستيس [1] ـ وهى أن الإنسان تعرض له فى حياته خبرات غير عادية يمكن أن نصفها بأنها "خبرات دينية" ـ وهو يسميها فى أعلى صورها باسم "الخبرة الصوفية" [2] ـ وهى خبرات نلتقى بها فى آداب الأمم جميعاً حتى أكثرها تحضراً. هذه الخبرات تجعلنا نتساءل باستمرار عما إذا كان هناك ـ فى هذا الكون ـ وجود روحى أعظم من الإنسان، هو الذى تتطلع إليه الديانات المختلفة للجنس البشرى؟ وإن صح وكان هناك مثل هذا الوجود الروحى، فما علاقته بالإنسان؟ وما هى علاقته بالكون بصفة عامة؟ [3].

إن التفسيرات المختلفة لنشأة الدين تفترض سلفاً وجود هذه الخبرة الدينية (أعنى ذلك الموقف الذى يجد فيه الإنسان نفسه مدفوعاً إلى التساؤل عما إذا كان هناك وجود روحى متعال) إنها ـ الخبرة الدينية ـ إحساس متأصل فى أعماق الإنسان، بحيث تصبح محاولة انتزاعه، محاولة يائسة بقدر ما هى عقيمة. هذا الإحساس "يكمن فى أعمق أعماق كل قلب بشرى، بل هو يدخل فى صميم ماهية الإنسان"[4].

ولإبراز مفهوم الخبرة الدينية، سوف نشير هنا لموقف ـ متباين ـ لإثنين من المفكرين اللاهوتيين فى مجال دراسة الوظيفة الأساسية للأسطورة وعلاقتها بالمعتقد الدينى. وهما: "رودلف بولتمان" [5] الذى نظر إلى مسائل العقيدة المسيحية نظرة نقدية، بغية التأكد من صحتها؛ واستبعد الطابع الأسطورى من العهد الجديد، وحاول تفسيره على نحو وجودى. وذلك من خلال مشروعه الـ "ديميثولوجى"[6] Demythologize الذى وجد فيه بداية لإعادة تكوين العقل المعاصر على نحو يخلصه من الأسطورة التى ما زالت تهيمن على تفكيره فى عصر العلم.

أما الثانى فهو "ميرسيا إلياد"[7] الباحث فى تاريخ الأديان وعلم الأساطير، الذى لفت الانتباه إلى أن الأسطورة هى من أهم الاكتشافات فى القرن العشرين،

وأن الإنسان مازال يحمل بقايا ميثولوجية فى لا شعوره، يحياها فى وجدانه وفى أحلامه. ومن خلال الأساطير، تناول "إلياد" مشكلات شغلت الإنسان فى الأزمنة القديمة ـ كما فى الزمن الراهن ـ ومنها: الألم والقلق والموت. كما قدم أيضاً أبحاثاً عن الزمان والتاريخ، وعن المقدس والدنيوى. وتحدث عن الحنين إلى الفردوس، والرغبة فى تجاوز ما هو بشرى، لينتهى إلى أن الأسطورة تكمن فى لا شعور الإنسان الحديث؛ وهى تفعل فعلها فى تفكيره، وفى سلوكه دون أن يدرك ذلك .

* * * *

opeikandl.com

رودلف بولتمان

تخليص الدين من الأسطورة

كثير من عقائد الإيمان المسيحى قد واجهت تحدياً من قبل المفكرين الليبراليين فى كل أنحاء العالم، وكانت أهم الدراسات التى تعرضت لكثير من النقد تلك المتعلقة بالأبحاث التاريخية عن يسوع المسيح. ويمكن التأريخ لبداية البحث عن "تاريخية المسيح" فى الفترة ما بين عامى 1774 و1778 عندما نشر "ليسنج"[8] الأبحاث النقدية الخاصة بالمفكر اللاهوتى "ريماروس"[9] والتى أثارت عاصفة من الجدال وقتذاك. فقد رأى "ريماروس" أن يسوع المسيح لم يؤسس أى سر مقدس، ولم يتنبأ بموته؛ كما أنه لم يقم من الأموات، لذلك فتاريخية المسيح ـ فى رأيه ـ ليست سوى خداع متعمد من قبل تلاميذه [10].

لكن الأبحاث المرتبطة بتاريخية المسيح استمرت حتى القرن التاسع عشر، وظهرت بأشكال وصيغ عديدة ومتنوعة. فمثلاً نشر "ستراوس"[11] كتابه "حياة المسيح" عام 1835، وأبرز فيه عبث وعدم جدوى بعض التفسيرات الخاصة بحياة المسيح؛ مؤكداً على أن المعجزات فى الأناجيل ينبغى أن يتم فهمها بوصفها أساطير ليس لها علاقة بالتاريخ. وبذلك تجاهل "ستراوس" البعد الإعجازى فى العهد الجديد، واعتبره مجرد "قشرة" يجب إزالتها من أجل التركيز على تعاليم يسوع. ووجد المدخل الجديد للتفسير الليبرالى لتاريخية المسيح، بعض العقائد التى يمكن الرجوع إليها مثل: "أبوة الله" و"أخوة الإنسان" و"القيمة اللا محدودة للنفس الإنسانية".[12]

وانتهى الأمر بالكشف عن وجود تفسير أسطورى فى العهد الجديد، ومحاولة استبعاده على يد "رودلف بولتمان" وأتباعه فى القرن العشرين؛ الذى رأى :

"أن هناك سلسلة متصلة من الأحداث التاريخية لا يمكن اختراقها بتدخلات فائقة للطبيعة، لذلك كله لا توجد معجزات – بما تعنيه هذه

الكلمة – وإن وجدت هذه المعجزات فسوف تكون أحداثاً أسبابها تقع فى مجال آخر غير مجال التاريخ". (13)

جاءت نظرة "بولتمان" متسقة مع برنامجه أو مشروعه "الديميثولوجى" الذى هو عبارة عن نقد لأسطورة العهد الجديد لكونها تتحدث عن رؤية أسطورية للعالم عفا عليها الزمان، ولم تعد مقبولة بالنسبة للإنسان المعاصر الذى أصبح ينظر إلى العالم نظرة موضوعية وعلمية لا تقبل أى تدخل خارق للطبيعة؛ ويجدها الأصدق والأكثر انطباقاً على الحقائق، وتناقض الرؤية الأسطورية من كافة الاعتبارات، وذلك بغرض إعادة تأويلها على نحو يكشف عن "الكيرجما" التى تختفى وراء لغتها المجازية أو التصورية، والتى يمكن أن تكون مفهومة حتى بالنسبة للإنسان المعاصر "اللاميثولوجى" (14). ذلك هو الهدف الحقيقى للأسطورة الذى يصر "بولتمان" على ضرورة الكشف عنه من خلال إعادة تأويلها، تأويلاً وجودياً يجسد المعنى الأعمق الذى طمسته اللغة المجازية الحرفية لهذه الأسطورة.

يقول:

"الهدف الحقيقى للأسطورة ليس تقديم صورة موضوعية عن العالم فى حد ذاته، بل التعبير عن إدراك الإنسان لنفسه فى العالم الذى يعيش فيه. لذلك، لا يجب تفسير الأسطورة تفسيراً كونياً، وإنما يجب تفسيرها تفسيراً انثروبولوجياً أو وجودياً " (15).

إن الإنسان المعاصر – فى رأى "بولتمان" – لم يعد يقبل صور التفكير فى العهد الجديد. فلا يمكن أن ينظر إلى عالمنا على أنه مسرح لصراع بين قوى فائقة للطبيعة، أى قوى شريرة تحاول امتلاكنا وتدميرنا، وإله يتدخل لكى يحفظ خلاصنا " (16).

يقول:

"ظهر العالم كبنية ذات ثلاثة أبعاد: الأرض فى المركز، وتعلوها السماء، وأسفلها العالم السفلى. والسماء هى موطن الله والموجودات السماوية – الملائكة. والعالم السفلى هو الجحيم – مكان العذاب. حتى الأرض

كانت أكثر من مسرح للأحداث اليومية الطبيعية. .. إنها مسرحاً للأفعال الخارقة للطبيعة من جانب الله وملائكته، ومن الشيطان وأشياعه. هذه القوى الخارقة تتدخل فى مجرى الطبيعة وفى كل شىء يفكر فيه البشر وما سوف يفعلون. والمعجزات ليست نادرة الحدوث على الإطلاق، فالإنسان لم يكن هو المتحكم فى حياته؛ فهو عرضة لأن تتملكه الأرواح الشريرة، أو وساوس الشيطان. وفى المقابل، قد يلهم الله فكره ويوجه أهدافه ويمنحه بصيرة سماوية "" [17].

هذا فضلاً عن أن قصص المعجزات تكمن فى صميم الاعتقاد المسيحى "فإن لم يكن المسيح قد قام فباطل إيمانكم. أنتم بعد فى خطاياكم" "[18]. فهل يتحتم على الإنسان ـ إذن ـ لكى يكون مسيحياً أن يأخذ فى آن واحد بصورتين عن العالم متعارضتين أشد التعارض: إحداهما صورة يقدمها علم القرن العشرين، والأخرى يقدمها تأمل القرن الأول السابق على العلم ؟.

إن محاولة من هذا القبيل من شأنها أن تجعل الاعتقاد المسيحى صعباً دون لزوم، كما أنه ليس ثمة داع للنظر إلى المسيحية على أنها دين "تاريخى". فحسبنا أن نعلم أن المسيح قد ظهر على سطح الأرض وعاش بالفعل وأثر فى حواريه، لكن أن تجعل الإيمان الدينى متوقفاً على "تاريخية" خصص بها ميلاد المسيح؛ فذلك أمر قد يضعف الإيمان ويزعزعه من أركانه" [19].

مشروع بولتمان الوجودى

كانت نقطة الإنطلاق الأساسية فى مشروع "بولتمان" هى اتخاذه من النقد منهجاً، ومن العقل أداة لهذا المنهج. فقد اتجه إلى دراسة منهج "نقد الشكل" [20] وطبقه على العهد الجديد مستخدماً فى ذلك منهجاً تحليلياً مقارناً، يربط من خلاله بين التعاليم الواردة فى الأناجيل وأصولها فى اليهودية والهيلينستية؛ ويحدد التشابهات والاختلافات بين كتاب الأناجيل والوقوف على أهم الإضافات التى ربما قد تكون أضيفت إلى المحتوى الأصلى" [21]. يقول:

"منذ ما يزيد عن أربعين عاماً، ودارسوا العهد الجديد على دراية بوجود مدرسة للبحث فى الأناجيل تعرف باسم "نقد الشكل" أو – بدقة – "تاريخ الشكل". وقد كرست هذه المدرسة اهتمامها على تحليل الوحدات المكونة التى بنى على أساسها التقليد الشفهى. هذا التقليد يتكون – فى الأصل – من وحدات منفصلة تم جمعها بواسطة كتاب البشائر، ثم ظهر أخيراً على شكل الأناجيل "" [22] .

ولعل السبب الرئيسى وراء اعتماد "بولتمان" على منهج "نقد الشكل"[23] أنه رأى أن هناك الكثير من مصطلحات الأناجيل غير قابلة للتطبيق بشكل فعلى، وغير جديرة بإيصال فحوى الرسالة الدينية الحقيقية إلى قلوب وأذهان الناس؛ وذلك بهدف جعل النص الدينى قابلاً للفهم من قبل الإنسان المعاصر" [24]، الذى لم يعد يفهم ما يقوله "العهد الجديد" .

إذن، ماذا يتعين على اللاهوت والتبشير المسيحى أن يفعل أمام رفض الإنسان المعاصر لأسطورة العهد الجديد؟ يرى "بولتمان" أن الرؤية الأسطورية للعالم لا تنطوى – فى حد ذاتها – على شىء يتوقف على المسيحية وحدها دون سواها، فهذه الرؤية هى عبارة عن رؤية كونية تختص بعصر ما قبل العلم، وعلى حد قوله :

"يمكن تعقب الرؤية الأسطورية عن العالم، ليس فقط فى التراث السابق على المسيحية والذى وجّد عند اليهودية Jewish والغنوصية Gnosticism، بل أيضاً فى التراث اليونانى وغير اليونانى السابق عليهما" [25].

إن الإنسان المعاصر لا يملك – كما يقول "بولتمان" – سوى قبول الرؤية السائدة فى عصره، والتى تكون إما نتاجاً للتفسير العلمى فى ذلك العصر ("كوبرنيكوس" – "أينشتين") أو نتاجاً لفهم الإنسان لذاته ("الرومانتيكية" – "المثالية")؛ كما أنه لا يمكن أن يستبدل هذه الرؤية أو يلغيها بواسطة أى سلطة كائنة ما كانت، حتى إذا كانت سلطة الإيمان [26].

إذن فالمهمة الأساسية للـ "ديميثولوجيا" – ممثلة فى الكشف عن الهدف

الحقيقى للأسطورة ـ هى الحديث عن إمكانية لوجود إنسانى أصيل يقبله الإنسان المعاصر ويفهمه. ولقد وجد "بولتمان" مضامين هذا الوجود، فى التحليلات التى قدمتها الفلسفة الوجودية خاصة عند "مارتن هيدجر".

* * * *

obeikandl.com

ميرسيا إلياد

الأسطورة وخبرة المقدس

بحث كثير من المفكرين فى بنية المجتمعات الذهنية والثقافية، وتعرض عدد منهم إلى كشف النسيج الأسطورى الذى تتشابك فيه الأسطورة مع الفلسفة والسحر والدين؛ وإلى كيفية تداخل هذه الأمور جميعاً لتشكل مجتمعة ـ أو متعارضة ـ نمطاً معيناً من التفكير والسلوك المعارض للعقلية العلمية. كما أن عدداً من المفكرين تعرض بدراسته إلى جذور بعض المعتقدات والأفكار التى يعيش عليها المجتمع، وأصول هذه الأفكار والمعتقدات ومسبباتها [27]. غير أن مثل هذه الدراسات كانت نادرة فى بعض المجتمعات، ويعتبرها ـ هذا البعض ـ محرمة ومن عمل الشيطان؛ لاسيما وأن أمثال هذه المجتمعات مازالت تعيش على مقدسات وأفكار لا يسمح معها بإعمال حكم العقل أو بمناقشة موضوع من الموضوعات المقدسة فى عرضها على هدى هذا العقل ومنطقه .

لكن نظرة فاحصة يلقيها الإنسان على مسيرة حياته وبنية مجتمعه، توضح أنه مازال يعيش فى عالم ثنائى من الخيال والغيبيات. وهو ـ فى وجوده ـ أسير لأساطير ومحرمات ومقدسات تتناول كل مقومات هذا الوجود، وإنه مازال يعانى تسلط واستبداد أفكار أشخاص تفصله عنهم مئات السنين [28]. ويندر أن يتساءل أحد: لماذا وصّف ذلك الشيء بالحلال والمقدس وذلك الشيء بالمدنس والحرام؟ لماذا اعتبر هذا المكان وهذا الجبل وذلك الحجر مقدساً فى حين وصف غيره أو وُصِفَت ظاهرة طبيعية بكونها مجردة من القداسة [29] .

كشف "ميرسيا إلياد" عن الكثير من الأوهام التى تعانى منها بعض المجتمعات، والتى يجب نزعها من الرؤوس التى تعشش فيها؛ مع غيرها من الأساطير الكثيرة التى يجب تعريتها من زمن طويل. وفى إطار ذلك، بين معالم الحدود لكثير من

الأمور التى تعرض وجودها تحت عنوان "مقدس"، بينما هى ـ فى واقع الأمر ـ تنبع من ميثولوجيا ابتكرها الإنسان عبر تاريخه؛ وجعلها قيداً على فكره وحريته.

وفى كتابه "المقدس والدنيوى"، انكب "إلياد" على تحليل أشكال الخبرة الدينية، ونجح فى إظهار محتواها وبيان خصائصها النوعية. وسعى إلى تقديم ظاهرة "المقدس" بكل تعقيداتها وفى تعارضها ـ أيضاً ـ مع ما هو دنيوى أو مدنس. يقول:

> **"كيف يمكن للنفس البشرية أن تتحرك دون الاقتناع بوجود شىء حقيقى لا يمكن إنقاصه فى هذا العالم؟ كيف يمكن للشعور أن يبدو دون أن يضفى دلالة حقيقية لتجارب الإنسان؟ إن الشعور بعالم حقيقى وذى معنى مرتبط – أساساً – باكتشاف المقدس. ومن خلال خبرة المقدس أدركت النفس الفارق بين ما يكتشف على أنه حقيقى وذى معنى قوى، وبين ما هو دنيوى(أو مدنس) ومجرد من كل خصائص القداسة"** [30].

أصبح الإنسان غارقاً ـ كما يرى إلياد ـ فى خضم عالم موسوم بما هو مقدس وما هو دنيوى، وكان كل ما يصبو إليه هو المشاركة الفعلية لتجليات القداسة التى توفرها له مشاركته فى طقوس البدايات التكوينية للعالم؛ أو فى إعادة تمثيله لأدوار الخلق الأول عن طريق ممارسة الطقوس، وإعادة الرواية السردية الأسطورية. وعلى حد قوله :

> **"ظل الإنسان، طوال آلاف السنين – يعمل عن طريق الطقس؛ ويفكر فى أوجه الشبه بين العالم الأكبر والعالم الأصغر.. وهو إذ يفعل ذلك، فإنما يساهم فى قدسية الكون"** [31].

والعالم القديم كان يجهل "الفعاليات الدنيوية غير المقدسة"، فكل عمل يحمل دلالة محددة، إنما يشارك على نحو ما فيما هو مقدس. فبدءاً من أعمال القنص والصيد، مروراً بالأعمال المختلفة والاشتراك فى القتال، وصولاً إلى النشاط الجنسى؛ كل هذه الأعمال يمكنها أن تشترك وترمز إلى الفعل المقدس الأول [32]. وكل حدث أو سلوك أو فعل هو تمثيل أو محاكاة ـ عند القدماء ـ لحدث ملحمى مقدس.

وتكرار النزاع بين البشر لا يتعدى أن يكون سوى محاكاة للطراز الأول من النزاع، وهذا ينسحب على قداسة المكان. والممارسة الطقوسية المرافقة لتشييد بناء ما، إنما هي تكرار للبناء الأسطوري الأول الذي تم في بدء الخلق. والقيمة السحرية لبعض الأعشاب تعود إلى اقترانها بنموذج سماوي أول خاص بالنبات، كذلك الآثار الفنية هي تقليد من الدرجة الثانية للروائع الفنية الأولى؛ لذلك يرى "إلياد" أن :

"أي موضوع من الموضوعات أو فعلاً من الأفعال لا يصير واقعياً، إلا بمقدار ما يحاكي، أو يكرر نموذجاً أولياً" (33) .

على هذا الأساس، فإن بناء مقام ديني أو معبد هو تكرار لعملية الخلق الإلهي للكون؛ لا لأن المعبد يمثل الكون فقط، بل لأنه يمثل مختلف الأدوار الزمانية أيضاً، وهو تمثيل من الدرجة الثانية لعملية الخلق الإلهية (34).

وإذا انتقلنا إلى الديانات التوحيدية، فإن الالتباس والاختلاط ـ كما يرى "إلياد" ـ ينحسر عندها بين المقدس والدنيوي؛ في الظواهر الكونية، وتتضح معالم الحرام والحلال. فتبقى بعض الأماكن تمثل موقع القداسة عند المؤمنين، ذلك لأنها تمثل صورة من الدرجة الثانية لمكان سماوي. وتصبح بعض حوادث التاريخ ذات دلالة على رضا الله، إن كانت تحمل المسرة لأصحابها؛ وبعضها الآخر يحمل الدلالة على غضب الله، إن كانت ذات طابع كارثي [مثل الأسر البابلي ـ واجتياز البحر الأحمر ـ وغزو بلاد كنعان ـ والرجوع من المنفى] (35).. وفضلاً عن ذلك، فإن الديانات التوحيدية أدخلت في الخبرة الدينية مقولة الإيمان التي قادت إلى أعلى درجات الحرية التي تصدر عن الله .

أما الإنسان في العصر الحديث ـ كما بين "إلياد" ـ فقد جرد العالم من القداسة، وأصبح ينظر إلى المقدس بوصفه عقبة أمام تحقيق الحرية؛ وهو لم يصبح ذاته إلا في اللحظة التي سيعود فيها عقله إلى رشده. وكما قال :

"لن يكون الإنسان حراً حقاً إلا في اللحظة التي سيقتل فيها آخر إله" (36)..

إن الإنسان الحديث [أو الإنسان الدنيوى] يتعرف على ذاته عندما يتحرر أو يتطهر ـ إن صح التعبير ـ من أساطير أجداده، ويحيا فى عالم غير العالم الذى كان أجداده قد عاشوا فيه؛ لكنه ـ فى رأى "إلياد" ـ ما زال ممتزجاً بالوقائع الأسطورية التى رفضها، وسواء أراد أم لم يرد فهو مازال يحافظ على ملامح سلوك الإنسان المتدين.

من هنا، كان هدف "إلياد" هو استعادة الأزمان المقدسة وزرعها فى الزمن الحالى، من أجل الحياة فى عالم نقى متجدد؛ يشبه حالته عندما خرج من يد الخالق، ومن أجل إعادة تأسيس مستمرة لهذا العالم.

الأسطورة والعالم الحديث

يعرف "ميرسيا إلياد" الأسطورة بقوله :

"تروى الأسطورة قصة مقدسة، وحدثاً وقع فى الزمن الأول، الزمن الخيالى، "زمن البدايات". بعبارة أخرى، تحكى لنا الأسطورة كيف خرجت حقيقة ما إلى الوجود بفضل مآثر بعض الكائنات الخارقة للطبيعة، ولا فرق بين أن تكون هذه الحقيقة كلية "كالكون" مثلاً، أو جزئية كأن تكون جزيرة أو نوعاً من نبات أو مسلكاً يسلكه الإنسان. إذن، الأسطورة هى دائماً سرد لحكاية "خلق". ولا تتحدث إلا عما حدث بالفعل، عما قد ظهر إلى الوجود. وتعرف شخصياتها بما قامت بفعله فى زمن البدايات. هكذا تكشف الأساطير عن نشاطها الإبداعى وقدسية أعمالها، إنها تصف الطرق المختلفة التى يدخل بها العنصر المقدس إلى العالم" [37].

يؤكد "إلياد" على جانبين أساسيين فى الأسطورة. الأول وهو: أن الأسطورة قصة مقدسة، وحقيقية بالتالى، لأنها ترجع دائماً إلى بعض الحقائق. وبما أنها تتحدث عن ميلاد الكائنات الخارقة وقدرتها المقدسة، تصبح نموذجاً مثالياً لكافة الأنشطة الإنسانية التى لها دلالتها. الجانب

obeikandl.com

الثانى هو ربطه بين الأسطورة والتاريخ من ناحية والإنسان البدائى وإنسان العصر الحديث من ناحية أخرى. يقول:

> **"فى حين أن إنسان العصر الحديث يعتبر نفسه نتاجاً لمجرى التاريخ العالمى، ولا يشعر أنه مجبر على معرفة هذا التاريخ معرفة تامة؛ نجد أن الإنسان فى المجتمعات البدائية مجبر على أن يتذكر تاريخ قبيلته الأسطورى، بل هو مجبر على إحياء جزء كبير منه بطريقة دورية. وهنا يكمن أهم فرق بين إنسان العصر الحديث والإنسان فى المجتمعان البدائية"** (38).

والسؤال هو: ما المصير الذى آلت إليه الأسطورة فى العالم الحديث؟ يوجد عند الإنسان ـ كما يرى "إلياد" ـ ميل إلى التخلى عن الزمان الراهن وعما نسميه "الظرف التاريخى" من أجل الخروج من الديمومة ومن التاريخ، ولتحقيق الرغبات غير المرتوية. وذلك عن طريق العدد الهائل من التسليات التى ابتكرتها الحضارة الحديثة، وعن طريق الانصراف إلى الإنتاج الأدبى وإلى العروض المسرحية وإلى التلفاز والسينما. والإنسان، عندما يفعل ذلك، يستعيد دون أن يدرك السلوك الأسطورى ويحيا أبعاده (39).

لذلك، فبعض المشاركات فى عالم الأساطير، وفى الرموز الجماعية ما زالت تفعل فعلها فى العالم الحديث؛ لكنها لا تلعب الدور الرئيسى الذى كان للأسطورة فى المجتمعات البدائية. يقول "إلياد" :

> **"إن المجتمع الحديث يبدو مجرداً من الأسطورة، إذا ما قارناه بمجتمع الأزمنة الماضية"** (40).

وهنا يقرر "إلياد"، أن بعض الباحثين يرون أن ما يصيب المجتمعات الحديثة، من ضيق وقلق وما تواجه من أزمات، إنما يعود إلى غياب أسطورة خاصة بها (41). لذلك، فالعالم الحديث ليس غنياً بالأساطير ـ على الأقل من الناحية الظاهرية ـ فمثلاً: عندما نقول عن "ظاهرة الإضراب العام" الذى يحرك الجماهير،

إنها من الأساطير النادرة التى أبدعها الغرب الحديث؛ فهذا أمر يتعلق بسوء فهم لهذه الظاهرة، لأن الاعتقاد السائد بأن فكرة ما تجد طريقها إلى الجماهير العريضة، يمكن أن تتحول إلى أسطورة لمجرد تحققها فى سياق التاريخ. فى الواقع، ليس هذا النهج يبدع الأساطير، لأن "ظاهرة الإضراب العام" هى ضرب من النشاط السياسى، غير أنه ضرب يفتقر إلى السوابق الأسطورية، وهذا كاف تماماً لأن نستبعده من نطاق "الميثولوجيا". وعلى حد قوله :

> **"إن الأسطورة – على صعيد التجربة الفردية – لم تتوار بتمامها. إنها تعلن عن حضورها من خلال الأحلام والحنين إلى الماضى البعيد، وإلى الفردوس المفقود؛ ومن خلال الأعياد الشعبية والاحتفالات الفولكلورية. إنها تكمن فى الفعالية اللاشعورية عند الفرد" [42].**

لكننا نتساءل: ما هى الموضوعات التى احتلت ـ فى المجتمع الحديث ـ المكانة الرئيسية التى شغلتها الأسطورة فى المجتمعات الماضية القديمة ؟

يرى "إلياد" أن ثمة موضوعات أسطورية ما زالت باقية حتى أيامنا، وهى تفعل فعلها فى المجتمعات الحديثة ـ كالأعياد التى تحتفظ بالبنية الوظيفية للأسطورة [43]. فعلى سبيل المثال: الاحتفالات بقدوم رأس السنة، أو الأفراح التى تعقب ولادة طفل، أو عند بناء منزل، أو حتى عند الإقامة فى منزل جديد. .. كل هذه الأمور تكشف عن نموذجها الأسطورى القديم الذى يعود إلى أسطورة التكرار الدورى للخلق. لكن هذه الموضوعات ـ التى ما زالت باقية حتى الآن ـ لا يمكن التعرف عليها بسهولة ويسر، كما يقول "إلياد"، بسبب خضوعها لعمليات علمنة نزعت عنها كل صفات القداسة.

يقول:

> **"نحن نعلم أن تقليد مثال يتجاوز حدود البشر، واستعادة مسلسل ينطوى على قدوة ونموذج؛ وإجراء قطيعة مع الزمان الدنيوى الخالى من القداسة – بواسطة فتحة توصل إلى الزمان الكبير – إنما**

تؤلف علامات أساسية للسلوك الأسطورى. أى سلوك إنسان الأزمنة الغابرة، الذى وجد فى الأسطورة مصدر وجوده" (44).

إن الخبرة الدينية عند المسيحى ـ مثلاً ـ تستند إلى تقليد المسيح بوصفه نموذجاً يحتذى، والاهتداء بنهجه فى الحياة؛ واستعادة موته وانبعاثه ـ بصورة نفسية ـ من خلال العبادات والشعائر. إنها تقوم على معاصرة المسيح، وعلى مواكبة الأعمال التى جاء بها فى ذلك الزمان (45). وبهذا المعنى كان "كيركجور" يطلب من المسيحيين الحقيقيين أن يكونوا معاصرين للسيد المسيح. وحتى لو لم يكن المرء مسيحياً حقاً، ـ بالمعنى السابق ـ فإنه يجب أن يكون معاصراً للمسيح، ذلك لأن الزمان الخاص بالعبادات وبالتقوى الذى يحياه المؤمن أثناء أداء الشعائر، والذى يمضيه أثناء إقامة الصلاة، ليس بالديمومة الدنيوية؛ إنما هو زمان مقدس إلى أبعد حدود القداسة، فيه تجسد الله وصار إنساناً. إنه "ذلك الزمان" الذى تتحدث عنه الأناجيل (46).

من هنا، يرى "إلياد"، أنه ليس من العسير أن نتعرف على الوظيفة التى كانت تضطلع بها الأسطورة فى مجتمعات الأزمنة القديمة، من خلال ما يسميه الناس اليوم: بالتعليم، والتربية، وثقافة الإرشاد. ذلك لأن الأساطير تمثل المعايير التى يتوجب الحفاظ عليها، وجملة التقاليد المنحدرة من تراث الأجداد.

لقد خضع الإنسان الحديث إلى تأثير ميثولوجيا واسعة الانتشار تعرض عليه محاكاة عدد من النماذج السلوكية، التى تتفق مع التربية والثقافة التى تلقاها. فمثلاً: الأبطال كانوا ـ فى عالم الخيال ـ يمثلون تلك النماذج، ويلعبون دوراً بارزاً فى إعداد المراهقين الأوروبيين. ونحن نجدهم فى شخصيات وروايات المغامرات، وفى أبطال الحروب، وفى مشاهير عالم السينما. .. إلخ. يقول "إلياد" :

"إن تحليلاً صحيحاً للميثولوجيا ذات الانتشار الواسع عند الإنسان الحديث، يتطلب كتابة مجلدات وأسفار. لأن الأساطير والصور الأسطورية ظهرت فى كل مكان فى الاستعراضات التى يفضلها، وفى

الكتب التى يقرأها، وفى السينما (مصنع الأحلام). ويمكن بيان عدد لا يحصى من البواعث الأسطورية مثل: الصراع بين البطل والغول، والمعارك والتجارب الباعثة للسعادة، والصور المثالية (الفتاة الشابة – البطل – المشهد الفردوسى – الجحيم. .. إلخ) حتى القراءة تلاءم وظيفة أسطورية، ليس لأنها تحل محل حكاية الأساطير فى المجتمعات القديمة والأدب الشفاهى فحسب – والتى مازالت حية فى المجتمعات الزراعية والأوروبية – وإنما بخاصة لأن القراءة تزود الإنسان الحديث "بخروج من الزمن" قابل للمقارنة بما أنجزته الأساطير. إن القراءة تسقط الإنسان خارج حدود شخصيته، وتدخله فى إيقاعات أخرى؛ وتجعله يحيا فى تاريخ آخر" (47).

وهكذا ـ رأى "إلياد" ـ أن الإنسان الحديث بوسائله المتعددة يسعى باستمرار إلى الخروج عن تاريخه، وبذل الجهد لكى يحيا إيقاعاً زمنياً يختلف، كل الاختلاف، عن الزمان المألوف. وهو ـ إن يفعل ذلك ـ يستعيد مرة أخرى، دون أن يفطن، السلوك الأسطورى.

❊ ❊ ❊ ❊

obeikandl.com

مراجع الفصل السادس

(1) "ولـتر سـتيس" Walter, Stace (1886 – 1967) فيلسوف إنجليزى المولد أمريكى الجنسية. درس فى كلية ترنتى Trinity فى أيرلندا وحصل على درجة الليسانس فى الفلسفة عام 1908. أصدر مجموعة من المؤلفات منها: "تاريخ نقدى للفلسفة اليونانية" عام 1920 و"فلسفة هيجل" عام 1924 و"نظرية المعرفة والوجود" عام 1932 و"مفهوم الأخلاق" عام 1937. ثم أصدر كتابين بعد نشوب الحرب العالمية الثانية: الأول هو "طبيعة العالم" عام 1940 والثانى "مصير الإنسان الغربى" عام 1942، دافع فيه عن الطريقة الديمقراطية فى الحياة التى كانت تتهددها – فى ذلك الوقت – أيديولوجيات فاشية. كما أصدر مجموعة هامة من الكتب عام 1952 وهى: "الزمان والأزل" ثم "بوابة الصمت" و"الدين والعقل الحديث" و"التصوف والفلسفة".

انظر فى ذلك: ولتر ستيس، الدين والعقل الحديث، ص ص 8 – 9 من مقدمة المترجم.

(2) نفضل استخدام كلمة "الخبرة" experience بدلاً من "التجربة" experiment، لأن التجربة لها معنى دينى مختلف، فهى تدل على الموقف العصيب أو الامتحان. جاء فى إنجيل "متى" الإصحاح السادس: "أبانا الذى فى السموات، ليتقدس اسمك، ليأت ملكوتك، لتكن مشيئتك كما فى السماء كذلك فى الأرض، خبزنا كفافنا أعطنا اليوم، وأغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضاً للمذنبين إلينا، ولا تدخلنا فى تجربة، لكن نجنا من الشرير – لأن لك الملك والقوة والمجد إلى الأبد – أمين". (6 – 9 – 13، ص ص 10 – 11) من الكتاب المقدس، دار الكتاب المقدس فى الشرق الأوسط، 1985. وقد ركزت الآية على كلمة "التجربة" لأنها تدل على الامتحان الدينى، كما فى عبارة "نجنا من الشرير" أى لا تدخلنا فى امتحان مع الشيطان. ومن هنا قد يفهم القارئ كلمة "التجربة" بمعنى الاختبار الدينى، أما كلمة "الخبرة" فهى تدل على الشعور الدينى المتأصل فى أعماق الإنسان.

(3) "ولتر ستيس"، التصوف والفلسفة، ترجمة د. إمام عبد الفتاح، مكتبة مدبولى، القاهرة، 1999، ص 22.

انظر أيضاً: د. إمام عبد الفتاح، الخبرة الدينية والإيمان، مجلة الفكر المعاصر، عدد (61) مارس 1970، ص 18.

(4) "ولتر ستيس"، الزمان والأزل، ص40.

(5) "رودلف بولتمان"، Rudolf Bultmann (1884 – 1976) عالم لاهوت، ومؤرخ متخصص فى الأناجيل. تلقى تعاليمه فى جامعة "مارنورج" و"توبنجن" و"برلين". شغل وظائف أكاديمية فى العديد من الجامعات. ساعد "بولتمان" فى تطوير مدرسة "نقد الشكل" و"مناهج دراسة الكتب المقدسة". أهم أعماله: "يسوع والكلمة" و"يسوع المسيح وعالم الأساطير" و"لاهوت العهد الجديد".

(6) يتكون مصطلح الـ "ديميثولوجى" Demythologize من مقطعين "De" بمعنى نفى أو نقيض أو استبعاد، و"Mythology" وتعنى أسطورة. وقد استخدم "بولتمان" هذا المصطلح مضافاً إليه كلمة "الكيرجما" Kerygma التى تعنى كلمة الله المبشرة إلى الناس من خلال حادثة أو فعل الله فى المسيح .

(7) يحتل "ميرسيا إلياد" مكانة مرموقة بين علماء الميثولوجيا فى القرن العشرين، وتعتبر كتبه مرجعاً هاماً لدراسة علم الأساطير وتاريخ الأديان القديمة. ولد فى "بوخارست" عام 1907. درس الفلسفة وقام بتدريسها فى جامعة "بوخارست" من عام 1933 حتى عام 1940. شغل منصب الملحق الثقافى لسفارة بلاده فى لندن. وفى عام 1957 انتقل إلى الولايات المتحدة الأمريكية ليدرس فى جامعة "شيكاغو" "الأسطورة وتاريخ الأديان"، واستمر فى هذا العمل حتى وفاته عام 1986. ألف ستة وأربعين كتاباً يبحث معظمها فى تاريخ الأديان. ومن أشهر هذه الكتب: "دراسة فى تاريخ الأديان" و"تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية" و"أسطورة العود الأبدية" و"صور ورموز" و"مظاهر الأسطورة" و"المقدس والدنيوى" و"الأساطير والأحلام والأسرار" و"التنسيب والولادات الصوفية".

(8) "جوتهولد افرايم ليسنج" Gotthold Ephraim Lessing (1729 – 1781) ناقد أدبى وشاعر وفيلسوف ألمانى، درس اللاهوت والفلسفة؛ وبدأ فى نظم الشعر وهو فى مطلع الشباب. تناول موضوع أسفار "الكتاب المقدس" وبخاصة أسفار "العهد الجديد"، وبذلك يعد رائداً لحركة النقد المتعلقة بالأناجيل؛ حيث لفت الانتباه إلى الفارق الجوهرى بين الأناجيل الثلاثة الأولى (متى – مرقص – لوقا) وبين الإنجيل الرابع (يوحنا). أهم أعماله مسرحية "ناثان الحكيم" التى نشرها عام 1779، وكتاب "تربية الجنس البشرى" عام 1780.

انظر: د. عبد الرحمن بدوى، موسوعة الفلسفة، الجزء الثانى، ص ص 360 – 361.

انظر أيضاً: ليسنج، تربية الجنس البشرى، ترجمة د. حسن حنفى، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، 1977 .

(9) "هرمان صموئيل ريماروس" H, Reimarus (1694 – 1768) مفكر لاهوتى كان يؤمن بالدين الطبيعى ويتشكك فى الوحى والأديان المنزلة. وكان اعتراضه على المسيحية يقوم على أساس أن الكتاب المقدس يجب أن يكون معصوماً من الخطأ، لكنه وجد فيه أخطاء؛ وبذلك رأى أنه ليس مقدساً ولا جديراً بالثقة الكاملة. أهم أعماله كتاب "دفاع عن عباد الله العقليين".

(10) برهان جديد يتطلب قراراً: "الهجوم على المسيح".

http: // www. bayta/lah. com / McDowell/book/ 29. html.

(11) "ديفيد فريدريك ستراوس" David Frederick Strauss (1808 – 1874) فيلسوف هيجلى، حاول فهم العناصر الأسطورية فى العهد الجديد، وعبر عن ذلك من خلال عمله الجدلى عن "حياة المسيح" الذى نشره عام 1835. ذهب إلى أن وحدة الله – الإنسان ليست متحققة فى المسيح، بل فى الجنس البشرى وتاريخه؛ وهى علاقة باطنة كامنة وليست متعالية مفارقة .

(12) Ninian Smart, The Religious Experience of Mankind, p. 624.

(13) Rudolf Bultmann, Existence and Faith, Shorter writings of R, Bultmann, translated by Schubert M, ogden living age Books, INC, N. Y. 1960, p. 292.

(14) انظر د. وهبة طلعت أبو العلا، جذور إلحادية فى مذاهب لاهوتية، مكتبة مدبولى، القاهرة، 1996، الكتاب الثانى، ص 46.

(15) R, Bultmann, New Testament and Mythology, in Kerygma and Myth, A Theological Debate, volume 1, edited by Hansw, Bartsch, translated by Reginald H, Fuller, London, S. P. C. K, 1964, p. 10.

(16) راجع فى ذلك: مُعجم أعلام الفكر الإنسانى، إعداد نخبة من الأساتذة المصريين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1984، الجزء الأول، ص 1101.

(17) R, Bultmann, op. cit., p. 1.

(18) رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس، الإصحاح الخامس عشر آية 17. (15 – 17، ص ص286) من الكتاب المقدس .

(19) مُعجم أعلام الفكر الإنسانى، ص 1102.

(20) منهج "نقد الشكل" هو أساساً ترجمة للكلمة الألمانية Formgeschichte التى تعنى حرفياً "تاريخ الشكل" Form History، ويزعم نقاد الشكل أن الأناجيل تتألف من وحدات مستقلة، هذه الوحدات تم ترويجها ونشرها بشكل مستقل كل على حدة، بحيث اتخذت شكل أنماط متنوعة من الكتابة والأدب الشفهى مثل: الأساطير والحكايات والخرافات والأمثال. وتبعاً لهذا النقد، فإن تكوين وحفظ هذه الوحدات توافق مع احتياجات الجماعة المسيحية فى القرون الأولى. وعندما كانت الجماعة تواجه مشكلة، فإنها تلجأ إلى اختلاق أو إبراز مقولة أو حادثة ليسوع المسيح للتعامل مع متطلبات هذه المشكلة بالذات. ومن ثم فإن هذه الوحدات ليست شواهد أساسية على حياة المسيح، بل بالأحرى يمكن النظر إليها بوصفها معتقدات وممارسات الكنيسة الأولى. ومن هنا كانت مهمة مدرسة "نقد الشكل" هى إرجاع الأناجيل إلى وضعها الأصلى النصى. ومن بين أهم وأكبر المؤيدين لهذه المدرسة: مارتن ديبليوس" M. Dibelius (1883 – 1947) مؤلف كتاب: "من التقليد إلى الإنجيل" و"مدخل جديد للعهد الجديد" و"رودلف بولتمان" و"فينسنت تيلور" F, Taylor (1887 – 1968) مؤلف كتاب: "بنية تقليد الإنجيل" و"حياة يسوع ورسالته".

انظر فى ذلك: برهان جديد يتطلب قراراً: "نقد الشكل والعهد الجديد".

http: // 216.212.98.66 / arabic/ verdict/ book/ 27. html.

(21) على حسين قاسم، فلسفة الدين عند رودلف بولتمان، رسالة دكتوراة غير منشورة، كلية الآداب – جامعة سوهاج، 2003، ص ص91 – 92.

(22) R, Bultmann, Forms of human community, in R, Bultmann, Essays philosophical and Theological, translated by James C, G, Greig, The MaCmillan Company, New York, 1955, pp. 3 – 4.

(23) توالت الهجمات ضد منهج "بولتمان" هذا، من جانب اللاهوتيين التقليديين، والكاثوليك منهم بخاصة، وقد انتفت – بسبب هذا المنهج – الصحة التاريخية لأسفار"العهد الجديد" وخصوصاً الأناجيل الأربعة، ولم يبق سوى المعانى الدينية فى العقيدة مجردة عن صحة مصادرها التاريخية .

(24) على حسين قاسم، المرجع السابق، ص 93.

(25) R, Bultmann, New Testament and Mythology, p. 3.

(26) op. cit.

انظر أيضاً: وهبة طلعت أبو العلا، المرجع سالف الذكر، ص 60 .

(27) ميرسيا إلياد، المقدس والمدنس، ترجمة عبد الهادى عباس، دار دمشق للطباعة والنشر، دمشق، 1988، ص 6 من مقدمة المترجم .

(28) المرجع السابق، ص 7 .

(29) انظر: A Thematic Source Book: Mircea Eliade, Man and Sacred of the History of Religious, Harper and Row , Publishers, New York, 1974, p. 3

(30) ميرسيا إلياد، تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، الجزء الأول، ص 9.

(31) ميرسيا إلياد، أسطورة العود الأبدى، ترجمة حسيب كاسوحة، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1990، ص5.

(32) انظر: شمس الدين الكيلانى، قداسة المكان فى الفكر الفلسفي .

http :// www. awu-dam. org / book/ 05/ study 05/ 8 – s – k/ book 05 – sd003. htm, 2005.

(33) ميرسيا إلياد، أسطورة العود الأبدى، ص 63.

(34) شمس الدين الكيلانى، من العود الأبدى إلى الوعى التاريخى، دار الكنوز الأدبية، بيروت – لبنان، 1998، ص 165.

(35) ميرسيا إلياد، مظاهر الأسطورة، ترجمة نهاد خياطة، دار كنعان للدراسات والنشر، دمشق، 1991، ص 51.

(36) ـــــــــ، المقدس والمدنس، ص 147.

(37) ـــــــــ، مظاهر الأسطورة، ص 10.

انظر أيضاً -Mircea Eliade, Myth and Reality, translated from the French by Willard R, Trask, Harper Colophon Books, Harper and Row Publishers, New York, London, 1975, p. 5.

(38) المرجع السابق، ص ص 16 – 17.

(39) ميرسيا إلياد، الأساطير والأحلام والأسرار، ترجمة حسيب كاسوحة، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 2004، ص39.

(40) المرجع السابق، ص 24.

(41) - Robert A, Segal, Myth: very short introduction, oxford university press 2004, p. 55.

(42) ميرسيا إلياد، المرجع السابق، ص 28.

(43) المرجع السابق، الصفحة نفسها .

(44) المرجع السابق، ص 32.

(45) المرجع السابق، ص 31.

(46) المرجع السابق، ص 32.

(47) ميرسيا إلياد، المقدس والمدنس، ص ص 148 – 149.

obeikandl.com